الأندلس في أيامها الأخيرة
في غرناطة

عبد العزيز بنعبد الله

بحثنا هذا ينصب خاصة على من هاجر من الأندلسيين إلى عدوتي أبي رقراق (الرباط وسلا). فالأندلسيون هم الذين هاجروا قبل سقوط غرناطة والمورسكيون هم الأندلسيون الذين نُصّروا وهُجّروا قسرا إلى المغرب في القرن السادس عشر الميلادي، وهي تسمية أطلقها عليهم الإسبان خلال هذا القرن الموافق في معظمه للقرن العاشر الهجري وجزء من الحادي عشر (1500-1600م/906هـ/1009). وقد هاجر الأندلسيون في فترات شتى إلى فاس ومراكش والريف. فالهجرة الأولى كانت من قرطبة آخر القرن الثاني الهجري، وقد تحدث عنها المقري في «نفح الطيب» (ج 1، ص 318)[1] «وكانت له (أي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل) الواقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لانه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة وخلعوه وبايعوا بعض قرابته وكانوا بالربض الغربي من قرطبة، وكان محله متصلا بقصره فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدّم دورهم ومساجدهم ولحقوا بفاس من أرض العدوة وبالأسكندرية من أرض المشرق ونزل بها جمع منهم ثم ثاروا بها فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر وغلبهم وأجازهم إلى جزيرة «إقريطش» (Crête) فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة». وقد

أسس عمر البلوطي أسرة ملكت إلى عام (350 هـ/961م) وهو العهد الذي امتلك فيه الإغريق الجزيرة. وقد استقرت – حسب دوزي – ثمانية آلاف عائلة ربضية بفاس حيث سبقتها جالية قيروانية، وكان العرب عمالا و تجارا والأندلسيون منهم مزارعين («البيان المعرب» لابن عذارى، ج 2، ص 79 في قسمه المترجم/ دوزي – «تاريخ مسلمي اسبانيا» ج 1، ص 301). وقد نزل اندلسيون في الريف أوائل القرن الثاني عشر حيث أقام جماعة من البحريين بقيادة محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون ببناء قرية في «بني قميل» بين «مثيوة» و«بني بوفراح» عام 209 هـ/824م («المُغرب» للبكري، ص 70). أما في مراكش فقد كانت المهاجر الرئيسية من قرطبة واشبيلية أيام الموحدين، وبمقارنة مجموع من هاجر نلاحظ تساكن فئات مختلفة من آل جيان وطليطلة وبلنسية ومالقة وشنترين وسرقسطة وشنترة وشقورة وقربليان ويكة وأخيرا غرناطة. ومعلوم أن عدد مدن الأندلس386 منها ست كبرى هي قرطبة واشبيلية وغرناطة وبلنسية وطليطلة وسرقسطة، وأربعون حاضرة يندرج فيها باقي المدن. وكان أهل المشرق قد استوطنوا بعضها كالشاميين في «البيرة» والأوربيين في «مالقة» والفلسطينين في «شذونة» وأهل حمص في «اشبيلية» والمصريين في بيجة ومرسية («الحلل السندسية» – شكيب أرسلان، ج 1، ص 40). وكانت قد قسمت في عهد الموحدين إلى عدة ولايات أو عمالات هي ولاية الغرب (شلب وأحوازها) وبيجة ويابرة وبطليوس وماردة وأحوازهما. ولم يكن عدد سكانها يقل عن خمسة عشر مليون نسمة في عهد الناصر[2] وصفهم المقرى («النفح» ج 1، ص 105) بأنهم «أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينسبون إلى البخل ولهم مروءات على عادة بلادهم لو فطن لها حاتم لفضل دقائقها على عظائمه». ووصف نظافتهم فقال : «أهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون.. وفيهم من لايكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائما و يبتاع صابونا يغسل به ثيابه و لا يظهر فيه ساعة يومه فيطويه ولا يظهر على

حالة تنبو العين عنها. وقد تزايد عدد المهاجرين بعد عهد الموحدين حيث بدأت بعض الحواضر تتساقط في قبضة الاسبان، فبعد وقعة طريف عام 741 هـ[3] استولى الإفرنج على الجزيرة الخضراء فأجاز أهلها إلى المغرب عام 743 هـ وأنزلهم أبو الحسن المريني ببلاده على خير نزل («الاستقصا» ج 2، ص 67) وربما كانوا يهاجرون عند اشتداد الأزمات عندما كانوا يتعرضون لهجمات الأسبان والبرتغاليين كما وقع قبل احتلال شاطبة عام 645 هـ/1247م («النفح» ج 6، ص 215) من حيث هاجر العلامة عبد الله بن علي بن أحمد اللخمي الشاطبي إلى «أغمات» فتولى قضاءها عام 532 هـ وتوفي بعد ذلك بسنة (تكملة ابن الأبّار، ج 3، ص 466 – طبعة مجريط 1887).

بويع عبد الواحد الملقب بالرشيد عام 630 هـ/1232م فحوصرت «سبتة» في عهده ودفع للإفراج عنها غرامة قدرها 400.000، دوكة وهو الذي انتزع مدينة فاس من بني مرين وقد انضم إليه الإشبيليون وأهل سبتة عام 635 هـ و توفي غريقا عام 640 هـ وكان قد اصدر الظهير لإيواء الأندلسيين ومنحهم حق اللجوء خاصة في عدوتي أبي رقراق حيث كان نائبه في ولاية المنطقة هو الأمير عمر المرتضى، فانهزم عام 662 هـ وبانهزامه قامت دولة بني مرين، وكانت «قشتالة» قد استولت على اشبيلية قبل ذلك بثلاث سنوات 645 هـ فانتقل الحكم الإسلامي إلى غرناطة التي بدأت أول وقعاتها ضد الاسبان عام 719 هـ/1319م بإمرة فدائيين من المغرب على رأسهم شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء الذي كان يشرف على مائتين من المجاهدين صرع معظمهم ففاوض أبو عبد الله العنابي نزيل دَرْعَة أبا زكرياء الوطّاسي في فدائهم مزودا من نساء القصر السلطاني بالحلي، ولكنه غرق في البحر («دوحة الناشر»، ص69) واستولى الإسبان على غرناطة عام 897 هـ/1481م فاستأمن أهل غرناطة – كما سنرى – في (67) شرطاً لبقائهم على أموالهم وشريعتهم ومساجدهم، فغدر الإسبان بهم وبملِكهم أبي الحسن. ولعل أشتاتا أخرى من الأندلسيين ظلوا متمسكين في مساقط

رؤوسهم بحواضر أخرى وخاصة في ملاجئهم بالجبل كأهل «بللنقة» وهو جبل بالأندلس صمد أهله عام 904 هـ/1498 عندما حمل الإسبان المسلمين على التنصر فثار البللنقيون وقتلوا صاحب قرطبة وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر («الاستقصا» ج 2، ص 154). ونحن نتساءل عن وضع مدينة «رباط الفتح» قبل هجرة الأندلسيين إليها طوال أربعة قرون، ففي عهد المولى الرشيد الموحدي كان قد مر على تأسيس الرباط نحو أربعين سنة ما لبث أن انقرض بعدها بخمس سنوات عهد الموحدين، فأعقبهم بنو مرين ثم السعديون حيث بدأت الهجرة في عهد المولى زيدان بن أحمد المنصور الذهبي. ففي هذه الفترة الطويلة طرأت أحداث وبرزت مظاهر حضارية واجتماعية وفكرية جديدة في رباط الفتح (راجع الرباط). وخلال جزء كبير من هذه الفترة كانت غرناطة قد خلفت اشبيلية فهاجر الكثير من أهلها إلى العاصمة الجديدة تحت حكم بني نصر وآخرهم هو أبو عبد الله الصغير محمد المعروف في المصادر الأجنبية ب «بوعبديل» الذي أبرمت بينه وبين الملكين الكاتوليكيين الدون «فرديناند» والدونة «ايزابيلا» بتاريخ (21 محرم 897 هـ/25 تشرين الثاني 1491م) معاهدة لتسليم غرناطة[4] وقد أصبح أهل غرناطة المسلمون بمقتضى هذه المعاهدة «رعايا طبيعيين» للملك الكاثوليكي مع حفاظهم على بيوتهم وأراضيهم وأموالهم وممارسة الشعائر الإسلامية بحرية دون المساس بمساكنهم وجوامعهم وأبراجهم ومحاكمتهم بموجب قوانينهم وقضاتهم واحترام عاداتهم وتقاليدهم وعدم مصادرة أسلحتهم أو خيولهم باستثناء الذخيرة الحربية. ويسمح لمن يرغب في الجواز إلى العدوة أو أي مكان آخر ببيع ممتلكاتهم وأراضيهم لمن شاؤوا ومع إعطاء الأولوية في ذلك للملك الكاثوليكي الذي يُجهِّز لعبورهم أرض المغرب عشر سفن كبيرة تتوزع على الموانئ القريبة منهم مع بيع أو تفويض لمن ينوب عنهم في تحصيل حقوقهم. ولا يسمح لأي نصراني بدخول المساجد دون إذن من الفقهاء الذين يتولون إدارة إيراد الجوامع والحلقات الدراسية فيها

ويعتبر جميع أسرى النصارى أو المسلمين أحرارا، ولا يدفع المسلمون إتاوات أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم. ويسمح لمن غادر الأندلس منهم بالعودة خلال ثلاثة أعوام من تاريخ إبرام المعاهدة للتمتع بالامتيازات التي يمنحها الأسبان لهم. ويحق لتجار غرناطة والبيازين والبشرات والأرباض أن يحملوا سلعهم إلى العدوة. ولا يجوز إرغام أية نصرانية تزوجت من أحد المسلمين واعتنقت الدين الإسلامي على العودة إلى النصرانية إلا طائعة وكذلك كل نصراني اعتنق الإسلام قبل إبرام الاتفاقية ولا يجوز إرغام مسلم أو مسلمة على اعتناق النصرانية.

وبعد انتهاء السنوات الثلاث المنصوص عليها في الاتفاقية تدفع ضريبة الأملاك والضياع الأميرية وفقا لقيمتها الحقيقية. وتشمل هذه الاتفاقية أيضا اليهود من مواليد مدينة غرناطة والبيازين الخ... و يسمح لهم بالعبور إلى العدوة خلال شهر من تاريخه. ولا يُوَلَّى على جماعة أبي عبد الله الصغير أحد ممن كانوا موالين لمولاي الزغل ملك واد آش عم أبي عبد الله الذين كانت بينهما عداوة قديمة، ويتولى النظر في الخصومات بين مسلم ونصراني مجلس مؤلف من حكمين أحدهما مسلم والآخر نصراني. ويفرج عن جميع أسرى غرناطة والبيازين وأرباضهما وضياعهما الموجودين في الأندلس خلال الأشهر الخمسة التي تعقب إبرام المعاهدة ويتعهد الملك الإسباني لجميع السفن الآتية من العدوة (المغرب) أن ترسو في موانئ مملكة غرناطة مع حرية التنقل والأمن.

وقد أبرمت في نفس اليوم الذي وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة معاهدة سرية كملحق للأولى، تضمنت الحقوق والواجبات والالتزامات والامتيازات التي أعطيت لابي عبد الله الصغير وأفراد أسرته وحاشيته. وقد مثل الملك في التوقيع القائد أبو القاسم المليح وذلك بعد أن يتم تسليم الحمراء والحصون والقلاع مقابل تمتع أبي عبد الله وورثته بحق الملكية في أماكن أحد عشر وقع التنصيص عليها ودفع هبة إلى الملك المسلم قدرها 30.000 جنيه قشتالى من الذهب تعادل

550.000 مرابطي بعد تسليم الحمراء وبقية القلاع. وعند رغبة الملك أبي عبد الله و الملكات و زوجة مولاي أبي الحسن علي والدة الملك العبور إلى العدوة فسوف تجهز لهم سفينتان كبيرتان من مدينة (جنوة) للجواز متى يشاءون وبحوزتهم كل أموالهم مع تامين وصولهم لأي مكان معروف سواء بالمغرب أو الإسكندرية أو تونس أو وهران. و قد ذيل الاتفاق بتوقيع الملكين الذين أديا القسم بدينهم وأعراضهم أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد.

حملة التنصير والتهجير

وتولى إدارة غرناطة نيابة عن الملكين مجلس كان على اتصال سري بالبابا الاسكندر السادس الذي كان كردينالا وأسقفا لبلنسية. وقد اعتبر المجلس شروط المعاهدة باطلة ففرض على المسلمين أحد أمرين وهما التنصير القسري أو التهجير القسري حيث صدر أمر منذ ثاني يناير 1492 بإحراق مليون وخمسمائة ألف كتاب ديني بما فيها من الوثائق والمخطوطات لإبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم (Francisco Piferrer : Nobiliario de los reinos y seniarios de Espna. T.VI, Madrid, 1860, p. 138. وقد استعمل الاسبان لضمان التنصير أخذ الأطفال المسلمين الذين تتراوح أعمارهم ما بين 5-12 سنة لتربيتهم في المعاهد المسيحية وإعادتهم إلى أهلهم كجواسيس عليهم. وكانت الملكة «إيزابلا» أشد تعصبا في ذلك من زوجها «فرديناند». وفي أول سنة 1500 تقرر إرسال الرهبان إلى مملكة غرناطة للتبشير بالكاثوليكية ريثما يتم التنصير القسري بالعنف والتشريد حيث تم تأسيس 120 كنيسة لهذه الغاية في «بلنسية» عام 1535م، وتكتل كل رجال الكنيسة ضد المسلمين عدا الأب «إيرناندودي تالافيرا» مطران غرناطة الذي درس العربية وأظهر رفقا و تسامحا (Villa Real y Valdivio) في كتابه (دروس أولية لتاريخ نقدي لاسبانيا – طبعة غرناطة - 1899 ص 382).

وقد حرم المدجنون، (وهم المسلمون الذين ظلوا على دينهم بين الاسبان قبل سقوط غرناطة) وألحقوا بمصير (الموريسكيين) المقيمين في غرناطة، من اقتناء الأراضي لتوطين الاسبان في أماكنهم ومزجهم بالنصارى حتى يفقدوا كل صلة بدينهم ولغتهم (Perez Bustamente C) في كتابه («جماع تاريخ اسبانيا»، طبعة مدريد، 1946، ص 359) وأدى بهم ذلك إلى تهديم كل الحمامات العمومية لمنع المسلمين من الغسل في مجموع أنحاء غرناطة، و فرض عليهم ضرائب جديدة ضمن مختلف التعسفات التي أدت إلى ثورة المسلمين مراراً عديدة بل عزل المسلمون عام 1498 عن بقية المجتمع الإسباني تمهيدا للتنكيل بهم فأزهقت أرواح الأبرياء (تاريخ مارمول حول ثورة المورسكيين في مملكة غرناطة. الطبعة الثانية م. 1– مدريد 1797، ص 112.) وتم حرق آلاف الأشخاص على يد محاكم التفتيش التي سبق تأسيسها منذ القرن الثالث عشر الميلادي من طرف الكنيسة الكاثوليكية لتحمي نفسها من الديانات الأخرى و قد تعززت في اشبيلية عام 1480 ثم في قشتالة واراغون عام 1482 ثم امتدت عام 1516 إلى قطلونية وبلنسية وحتى أمريكا إلى أن اختفت في القرن التاسع عشر Orti y Lara (Juan Manuel) في كتابه (محاكم التفتيش – مدريد 1877) وقد تأججت نيران الثورة الإسلامية في البشرات عام 1501.

وفي عام 1499 انتفضت «البيازين» فاضطر المسيحيون الموريسكيين والمسلمين من أصل إسباني المعروفين ب Elches [5] (الذين كانوا في طليعة من أخذتهم الكنيسة لتربيتهم وإجبارهم على العودة إلى النصرانية) فشكل الثوار مجلسا من أربعين[6] عضوا ليمثلوا حكومة موريسكية مستقلة منفصلة عن الأسبان[7]. و بعد تهدئة سطحية للثوار قرر الملكان الكاثوليكيان تعميد المسلمين قسرا ضمن «محاكم التفتيش» فلجأ الموريسكيون إلى رؤوس الجبال يتحصنون بها و يشنون من معاقلها غارات على الأسبان فكان رد فعل الملكين إصدار أمر عام 1501م يحرم على الموريسكيين ممارسة كل ماله صلة بعقيدتهم و لغتهم

فتزايد الاعتصام بمراكز المقاومة في الجبال و لعل هذا التدبير الجديد هو الذي كان أحد أسباب ثورة منطقة البشرات جنوبي غرناطة في نفس السنة وكذلك في قرية «سيرّا دي فيلاَ بْريس» (بالمرية) فقام الأسبان بتقتيل النساء والأطفال والشيوخ في قرية «غويخار سيرا» التي التحق رجالها بالمجاهدين الذين عز عليهم تحويل مساجدهم إلى كنائس فحرقوا إحداها في (موندیخار) وهي قرية عمل أهلها على إجبار الملكين على الوفاء بشروط معاهدة غرناطة خاصة بعد استيلاء الموريسكيين على عدة قرى و لكن قوات الأسبان تمكنت من إخماد الثورة عام 1502 فتضاعف الاضطهاد ونكث الإسبان معاهدة «بسطة» التي سمحت عام 1501 للمسلمين بالاطلاع على جوانب من الثقافة العربية واستعمال ثيابهم وحماماتهم فحظروا عليهم صراحة تطبيق الشريعة الإسلامية واقتناء الكتب الدينية (لاسيما منها المصحف الشريف)، ولم يتمالك الإسبان أنفسهم أمام هذه الثورات العارمة إلى أن جعلوا الموريسكيين أمام أحد خيارين: التنصير القسري أو التهجير خارج اسبانيا. وتم بالفعل تمسيح أكثر من50.000 مسلم في غرناطة وضواحيها علاوة على تحويل مسجد العاصمة إلى كنيسة كبرى وكذلك مسجد «البيازين» وإجبار المسلمين على نبذ ملابسهم العربية ولبس القبعات وترك لغتهم وتقاليدهم وأسمائهم العربية وتعويضها بالإسبانية مما يفسر ما اضطر الموريسكيون إلى حمله من ألقاب أجنبية في مهاجراتهم بأرض المغرب[8]. و هنا وجه الموريسكسون نداءات حارة إلى إخوانهم خارج العدوة، فاستخدموا ملوك المغرب حيث كان قد صدر منذ عام 637 هـ ظهير شريف للخليفة الرشيد منح حق الاستيطان وخاصة بالرباط لأهل شرق الأندلس، كما استغاثوا بالخليفة العثماني بايزيد الثاني (1481-1512م) الذي اكتفى نظرا لمشاكله الداخلية بتوجيه كتاب إلى الملكين الكاتوليكيين فلم يعيراه كبير اهتمام. واستنجد الموريسكيون كذلك بالملك الأشرف فانصوة الغورى(1501-1516) سلطان المماليك بمصر والشام الذي هدد بإجبار نصارى بلاده على الدخول

قسرا في الإسلام وذلك عن طريق وفد رسمي وجهه إلى اسبانيا ولكن الإسبان واصلوا اعتداءاتهم الصارخة المنافية لشروط الاستسلام. و إزاء تقاعس العالم الاسلامي عن نجدتهم اضطر الكثير منهم إلى قبول الأمر الواقع متظاهرين بالدخول في المسيحية بينما هاجر آخرون إلى نواح مختلفة منها جنوب فرنسا الذي نجد فيه منطقة تحمل اسم الموريسك بل غامر البعض فرافق «كريسطوف كولمب» في رحلته الاستكشافية إلى أمريكا.

وهكذا ظل معظم الموريسكيين منتشرين في أنحاء غرناطة وألمرية ووادي آش وبسطة متظاهرين بالمسيحية مع مواصلة التمسك سرّاً بالشعائر الإسلامية تقيّة وخوفا من بطش «محاكم التفتيش». وامتد السطو إلى المدجنين في بلنسية وأرگون غير أن الأسبان شعروا بمهزلة هذا التنصير القسري فنهجوا أسلوبا جديدا هو التهجير الاجباري الذي مس حتى مسلمي قرطبة وقشتالة واشبيلية وليون. واتخذوا في حق اليهود نفس الخطة وسموهم «maranos» محتفظين للمسلمين بلقب «موريسك». على أن طرد اليهود الاسبان قد صدر في حقهم مرسوم ملكي قبل ذلك بتاريخ (31 مارس 1492) ثم عمم نفس الاجراء منذ عام 1499 ضد المدجنين. وقد وقع الاسبان في حيرة كبرى أمام تضخم ردود الفعل الموريسكية وتجددت الثورات عامي (1567 و1570) في غرناطة مما حمل الاسبان على نقل الغرناطيين إلى قشتالة، ثم ثارت أرگون عام 1585 و أصدر «فيليب الثالث» عام 1609 مرسوما لنفي أندلسيي بلنسية مع منعهم من بيع أو إتلاف أملاكهم. ثم نفي «الهورناشيروس» أعقبهم 1610 كل سكان الأندلس واسترامادور Estremadure. واحتفظ الإسبان بأبنائهم من ست سنوات من بينهم 300 طفل في اشبيلية وحدها. و كان المطرودون 275.000 نقل منهم إلى السواحل المغربية أربعون ألفا 40.000 و بقي معظمهم قرب السواحل الأسبانية في سبتة و تطوان و مراكز أخرى بالمضيق لاستنشاق هواء الأندلس من حيث تواردوا في ثياب قشتالية يتكلمون الاسبانية ويحملون أسماء مسيحية لطول

مكثهم بين الاسبان محرومين من تراث أجدادهم الفكري و كتب دينهم و لغتهم ولذلك سماهم البعض (مسيحيي قشتالة). ووهم الناس في قسم منهم فعذبوهم لهذا السبب. وقد علقت مصادر عربية على قرار النفي الصادر في (22 شتنبر/1609 جمادى الثانية 1018هـ) فوضعت تاريخ القرار عام 1016 أو1017 هـ غير أن كتاب تاريخ الدولة السعدية يؤرخ الحادث بعام 1018هـ (ص 96). وهذه الأحداث والاضطرابات وأصناف التنكيل قد تمت نتيجة استسلام أمير غرناطة للإسبان بعد أن جاهد أجداده للحفاظ على ءاخر معقل بالأندلس. و كان علي بن سعد بن نصر قد تربع عرش مملكة غرناطة بعد سلسلة ملوك و أمراء توارثوا أريكة بني الأحمر وكان قبالته في قشتالة وأراغون الموحدتين منذ (1469) الملك فرناندو و زوجته إيزابيلا. وفي الوقت الذي اتحد فيه أمراء الطوائف المسيحية دب الخلاف بين علي وأخيه محمد أبي عبد الله المعروف بالزغل وابنه المعروف بالصغير الذي نازع من جهته عمه الزغل فنتج عن ذلك تفتت القوى الإسلامية وتشعب الاتجاه وسقوط آخر مملكة إسلامية بالأندلس (يوم ثاني يناير/1492 ربيع الأول 897 هـ). أضف إلى ذلك دسائس زوجة الأمير علي (ثريا) الاسبانية (إيزابيل دو سوليس) Isabel de Solis. وكان لأبي الحسن علي ابن أكبر هو أبو عبد الله محمد الذي حرف اسمه إلى بوعبديل (Boabdil). وتزعم بعض المصادر الأسباسية[9] أن ولدين هما سعد ونصر من إنجاب الزوجة القشتالية رافقا والدتهما بعد سقوط غرناطة واعتناقهما المسيحية[10] وانهارت قوة أبي الحسن منذ عام 1478 حيث طلب من الملكين الكاتوليكيين مهادنة أبياها أول الأمر ثم أذعنا بعد نصر خاطف لبني نصر، ولكن الأمر المحتوم و قع بسبب اطراد الصراع بين الأمراء المسلمين فاحتل الاسبان بلدة «الحمة» عام (1482م/887 هـ) مما حدا الأمير أبا الحسن إلى إرسال سفارة إلى فاس مستنجدا بملك المغرب، ولكن الأحداث توالت بسرعة فتراجع الأمير علي إلى مدينة غرناطة ووقع جنود مسلمون في الأسر وفي ضمنهم أبو عبد الله الصغير

الذي نقل إلى قرطبة ومنها إلى قلعة «بركونة». و بعد تحريره من القيد اتجه لاجئا إلى قرطبة فحماه القشتاليون ضد والده الذي ما لبث أن تنازل عن الملك لأخيه «الزغل» إلى أن توفي عام 1845 فدفن بروضة الأمراء في غرناطة. وهنا زحف أبو عبد الله الصغير صوب غرناطة فتزايد ضعف كليهما باقتسامهما مملكة غرناطة مناصفة، فكان للزغل مالقة والمرية والمنكب والبشرات (Alpujarra) ولابن أخيه مرسية وما تبقى من المملكة، فاستقر (الزغل) في قصر الحمراء وسطا أبو عبد الله على حي (البيازين) فنزل بها وحارب عمه تلبية للملك (فرناندو) بتحريض من أمه الإسبانية، فازدادت شعبية (الزغل) الذي واصل انتصاراته ضد الأسبان مما أدى إلى مجازر. استعاد أبو عبد الله غرناطة على أشلاء إخوانه المجاهدين المسلمين يوم (26 رمضان 892 هـ/15 شتنبر 1487) فقرر (الزغل) في غير حياء الانضواء تحت لواء الإسبان ضد ابن أخيه الخائن متنازلا لهم عما كان بيده من أقاليم بين وادي آش وغرناطة مقابل احتفاظه ببسطة والمرية اضطر لتسليمها بعد ثلاث سنوات (895هـ/1489) بعد خيانة ابن عمه يحيى النجار الذي تزعم المصادر الاسبانية أنه تمسح فلقب الغرناطي بنيغيش Venegas. وهنا اضطر (الزغل) إلى استيذان الإسبان في الجواز إلى المغرب الذي لم يقتبله ملكها المريني بحفاوة نظرا لصداقته مع أبي عبد الله الصغير بل نكل به على ما (زعمه «مارمول» في كتابه «تاريخ الثورة وعذاب مسلمي غرناطة المتنصرين» م.1 ص 75) فلم يلجأ إلى (بادس) كما يزعم (مارمول) بل توجه إلى وهران ثم تلمسان طبقا لما كتبه المقري في «نفح الطيب» (ج 6، ص 275، طبعة مصر 1909). ثم جاء دور أبي عبد الله الصغير فأرغم على تسليم غرناطة و طرد من اسبانيا بعد خيانة و زيره (يوسف بن كماشة)، فغادر الأمير بلاد الأندلس في (أواخر ذي الحجة 898هـ/اكتوبر 1493) إلى فاس مع ذويه و كامل حاشيته استقبلهم السلطان محمد الشيخ الوطاسي فعاش في كنف البلاط الملكي إلى أن توفي بعد زهاء نصف قرن (940هـ/1534م) (النفح، ج 6، ص 281)[11].

وقد أثار هذا النكال و العسف الذي أصاب الموريسكيين المنصرين وكذلك بقية الأندلسيين و ءاخر ملوكهم الأمير أبا عبد الله موجة من الاستنكار في العالم الإسلامي وحتى داخل الأندلس، حيث تقدم ثلاثة ممن اجبروا على التمسح بمذكرة بمظالم إخوانهم الموريسكيين حول ما لحقهم من اضطهاد وتنكيل منذ سقوط غرناطة وحتى من طرف (شارل الأول) عام (924هـ/1518)، فكان ذلك ذريعة للتشديد على الموريسكيين وصهرهم بالقوة في المجتمع النصراني. فتفاوض الموريسكيون الثلاثة سريا مع الملك شارل الأول فألغيت القرارات الجديدة التي شددت المراقبة على استعمال اللغة الاسبانية وحدها وترك كل ما يذكر الموريسكيين بصلتهم بالشريعة الإسلامية (ترك الاحتفال بالأعياد وإقامة حفلات الزفاف في الكنيسة وبناء معاهد كاثوليكية لتربية أبناء المسلمين على الدين المسيحي وغير ذلك). وتم هذا الإلغاء عام (1526م) مقابل دفع الموريسكيين للملك 80.000 دوكة[12]. ولكن القرارات ما لبثت أن أعيد العمل بمقتضاها عام (1559م) فتزايد التنكيل الذي عم مسلمي طليطلة وسيقوبية وسمورة وسالامنكا وبلنسية وأرگون وقطلونية. وفي هذه الظروف الحالكة اضطر ألوف المهاجرين إلى الانتقال عام (1016هـ) أو (1017) (وقيل 1019هـ) إلى فاس وتلمسان ووهران و تونس حيث أوسع لهم صاحبها حسب «الخلاصة النقية في أمراء افريقية» (عثمان داي) كنفه فبنوا نحو عشرين قرية و علموا الناس الحرف وتقاليد الترف. و قد تعرض لهم (المقري) في «نفح الطيب» (ج 2، ص - 617، طبعة مصر 1302) فذكر أن ذلك كان عام (1017هـ) وأنهم ذهبوا كذلك إلى تطاون وسلا والرباط ومصر والشام. وقد سلم أكثر من نزحوا إلى تونس في حين تسلط الأعراب عليهم في فاس وأحواز تلمسان فنهبوا أموالهم. وقد وصلوا سالمين إلى تطوان وعدوتي أبي رقراق وفسحة الجزائر (نشر المثاني، ج 1، ص 101) وكان عددهم نيفا وستمائة ألف «الأنوار السنية» لمحمد بن عبد الرفيع الأندلسي الذي عاصر هذه الأحداث). وقد أسس المهاجرون بتطوان (رباط

الأندلس) بحومة السانية حوالي عام (1020م) «تاريخ تطوان» – داود ج 7، ص 182. نقلا عن أبي محمد سكيرج). وقد أوردت هذه الأحداث مراجع عربية : «تاريخ الدولة السعدية»، ص 38، «نشر المثاني»، ج 1، ص 105، «الاستقصا»، ج 3، ص 100، «تاريخ تطوان» ج 1، ص 429. إلا أن صاحب «الاستقصا» لاحظ أن أول فوج من المهاجرين كان عام (891 هـ/1486) أي بعد استيلاء الاسبان على غرناطة بست سنوات. ويظهر أن الهجرة تمت في فترات وأن ملك المغرب قد عمل على الاستفادة من هؤلاء المهاجرين لتعمير السواحل والحواضر الهامة.

والواقع أن عددا كبيرا من النازحين الأندلسيين قد وصلوا إلى المغرب في عهد الخليفة السعدي عبد الله الغالب بعد عام (977 هـ/1569م) فأدمجهم في جيش سماه (جيش الأندلس) تحت قيادة سعيد الدغالي. و كان هؤلاء الغرباء قد نزلوا بتطوان والرباط ومراكش وأقطعهم السلطان أراضي بالجانب الغربي من فحص مراكش وهو رياض الزيتون («مناهل الصفا» مختصر الجزء الثاني، ص 20). وقد أصبح قائد هذا الجيش في عهد احمد المنصور هو محمد بن زرقون المعروف بالكاهية (وثائق دوكاستر س. أ– السعديون م.1 ص (454-532)، م 2، ص 45)، «الاستقصا»، ج 3، ص 101)[13]. وأول من وصل من الأندلسيين[14] الهورناشيروس Hornacheros الذين احتفظوا بأموالهم لأن فرارهم من الأندلس كان طواعية من تلقاء أنفسهم وقد بلغ عددهم (800) رجل تحملهم مولاي زيدان واضطربت الحياة في العدوتين بمجيئهم. وفد استقروا بالرباط حيث ساعدتهم أموالهم على تسليح سفن قرصنية انطلاقا من معقلهم في (القصبة). وكانت العدوتان آنذاك خاضعتين عام (1609م/1018هـ) للمولى زيدان بن منصور السعدي. غير أنهم عمدوا في نفس الوقت حسب مذكرة مؤرخة سنة (1621م/1031هـ) إلى تجديد بناء الرباط. ولم يعارض المجاهد (العياشي) في نزولهم بالقصبة التي قاموا بتحصينها بسور وأبراج وبنوا دورا وأفرانا وحمامين اثنين وجلبوا على حسابهم أندلسيين من باقي أنحاء المغرب وأسكنوهم خارج

القصبة فما لبثوا أن تحرروا من ربقة المولى زيدان الذي كان يرغب في إدراجهم في جيشه فطردوا القائد الزعروري واضطر زيدان إلى التنازل لهم عن مداخيل ديوانة المرسى. وفي عام (1627م/1037هـ) استقلوا تماما عن المملكة و طردوا القائد (عجيب) وشكلوا (ديوانا) على نسق آيت الأربعين بكل من الأندلس والأطلس (راجع آيت الأربعين)، وكان عدد أعضائه ستة عشر رجلا. وقد سيطر الهورناشيروس على أندلسيي رباط الفتح طوال خمس عشرة سنة (1641-1627م) (1037هـ- 1051هـ) معززين بالدخل الجمركي الذي ساعدهم على التسلح ضد سكان العدوتين فلم يسع (العياشي) إلا التحرك عام (1630م/1040 هـ) لاحتلال القصبة فبدأ يناور بين سكان شقي الرباط (المدينة والقصبة) الذين بادروا بالتصالح فيما بينهم لاسيما وأن القبائل المجاورة كانت تتربص بهم فاتفقوا على قائد يقطن القصبة ينتخبه سكان المدينة مع الحصول على ثمانية أعضاء في الديوان ونصف مداخيل الديوانة، وكان قائد الهورناشيروس هو عبد القادر سيرون وقائد أندلسيي الرباط هو عبد الله بن على القصري. وكان العياشي يجاهد آنذاك ضد اسبان (المعمورة) فاتهم كل من لم يساعده على محاربة العدو في ا لمهدية (أي المعمورة) والعرائش لاسيما وأن الأندلسيين امتنعوا من إمداد العياشي بمدافع، ولعلهم كانوا يخشون أن ينقلب ضدهم وأن يحاربهم بسلاحهم. فغضب العياشي واستصدر فتوى من العلماء لمحاربتهم فحاصر كلا من القصبة والرباط وأشعل فتيلة النزا ع والصرا ع بين العدوتين خلال عشر سنوات (1631-1641) إلى أن توفي في هذه السنة فاستقر ولده مع (500) فارس في (شالة) للحيلولة دون إمداد الضفة اليسرى للوادي. وقد استنجدت الرباط بالمولى الوليد منذ عام (1632) فرفع العياشي الحصار ولجأ إلى منطقة (الغرب). وفي عام (1636م/1046هـ) استولى الأندلسيون بالحيلة على القصبة وطردوا منها (الهورناشيروس) الذين لجأوا إلى سلا بالقرب من العياشي وأصبح (القصري) الرئيس الوحيد فقرر الاستيلاء على سلا وبنى قنطرة من

المعديات (قوارب) لنقل عتاده وجنده وحاصر المدينة خلال شهرين (يناير ويبراير من عام (1637) فاستغاث السلويون بالعياشي الذي هب بسرعة معززا بالأميرال الإنجليزي رانسبوروغ Rainsibrough الذي رابط بأسطوله بدعوى تحرير الأسارى الانجليز. فحطمت مدافعه القنطرة وقنبلت القصبة والسفن المرابطة بالمرسى فانحاز القائد (القصري) إلى الرباط فعمد العياشي إلى محاصرة القصبة للمرة الثانية مستنجدا بالأمير السعدي الأصغر الذي وجّه (محلة) لم تستطع الوصول إلى الرباط نظرا لاتفاق العياشي آنذاك مع الأمير الدلائي محمد الحاج. وكان الإنجليز قد اظهروا الميل إلى المخزن فأخضعوا القصبة وسلموا (القصري) إلى السلطان الذي استمع إليه وأدرك بعض أسرار الدسيسة فأرجع القائد القصري إلى الرباط لاستيناف مهامه حيث بادر بإعدام الثوار. وتزعم المصادر الأجنبية أن سكان القصبة فكروا خلال هذه الفترة المضطربة في تسليم القصبة للمسيحيين[1] ففاوضوا عام (1639م/1049 هـ) مبعوثا اسبانيا هو الدون جوان Don Juan de Toled الذي ورد بحرا من (المعمورة) واتفقوا معه على تسليم القصبة لملك اسبانيا الذي كان يعتزم توجيه خمسمائة جندي لاحتلالها، ولكن القائد القصري أفشل المناورة الاسبانية، وفي عام (1638) رفع (العياشي) الحصار على الرباط بعد مقتل القصري فجدد (الهورناشيروس) محاولتهم احتلال القصبة بعد أقل من ثلاثة أشهر فحاصروا بها الأندلسيين دون أي تدخل من السلاويين وهنا استغاث الأندلسيون، بالدلائي محمد الحاج. وكان للعياشي ضلع في حصار القصبة فاستماله الأمير دون جدوى وأجبر الهورناشيروس سكان الرباط على رفع الحصار عن القصبة عام (1640) فانهزم العياشي الذي قتل في (30 أبريل 1641). وبعد موته انصاعت العدوتان مع القصبة للدلائيين وكان العياشي قد كتب للأمير محمد الحاج ملاحظا أن اختلاف الفريقين يمس بالإسلام نظرا لاتفاق جانب ضد آخر مع الأعداء. وقد اتهم العياشي أندلسيي الرباط بخيانة قضية الإسلام عند حصار

(المعمورة) مما برر وصمهم بنصارى قشتالة ورسخ آنذاك تنابز وتصارع سكان العدوتين[15]. وهناك اشتد الصراع بين الضفتين وإن كان الدلائيون قد امتلكوا المراكز الثلاثة في مصب أبي رقراق إلى عام (1071 هـ/1660م) دون نزاع. ولكن الأندلسيين والهورناشيروس لاحظوا شدة وطأة الدلائيين الذين هاجموا القصبة مع السلاويين فانبرى (الخضر غيلان) لمحاربة جيوش الدلائي وحاول قائد الرباط السطو على القصبة ففر قائدها – حسب المصادر الأجنبية في سفينة انجليزية. وفي (16 أبريل 1661) استسلمت القصبة فاتفق الثلاثة (العدوتان والقصبة) على اقتسام مداخيل الجمرك. وفي ثالث مايه من نفس السنة خضعت القصبة للحضر غيلان وعين (أحمد الجندي) قائدا عليها فطرده أحد إخوة غيلان وخلفه القائد (عبد القادر مرينو) بانتخاب مشترك من الأندلسيين والهورناشيروس. كما عين الحاج (محمد فنيش) على رأس مدينة سلا. ولكن هذه الفوضى التي استمرت عقودا من السنين حاول الأعداء استغلالها لتركيز نفوذهم بالمغرب، قد جعل لها حدا الأمير العلوي مولاي رشيد في يونيه (1666م/1077هـ) عندما تمكن من الاستيلاء على المنطقة دون اصطدام، فكان ذلك آخر مرحلة لاضطراب الحياة في العدوتين.

الهوامش

1) وكذلك ابن خلدون، ج 4، ص 275/ «الحلة السيراء» لابن الأبار، ج 1، ص 44 طبعة 1963/ ليفي بروفنصال في («اسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي»، ص 130).

2) كان في قرطبة وحدها نحو المليونين ولما جلى المسلمين واليهود، وهاجروا إلى أمريكا هبط عدد سكان اسبانيا. ففي سنة 1594 كان نيفا وثمانية ملايين (ص41). وفي عام 1768... 9160000. وفي زمن آل بربون 10 ملايين وفي عام 1832 صار 11 مليونا، وسنة 1849 كانوا 14 مليونا، وفي أوائل القرن العشرين صاروا 21 مليوناً. وبذلك أصبحت الأندلس بعد خروج المسلمين منها «يتيمة» وقد أوصى المنصور الموحدي والد الناصر لدى احتضاره بالأيتام واليتيمة فسأله عنهما الشيخ أبو محمد عبد الواحد فأجابه المنصور : «اليتيمة هي جزيرة الأندلس والأيتام سكانها (البيان، لابن عذارى، ج 3، ص 24 طبعة الرباط 1960).

3) كانت وقعة طريف Tarifa أو معركة البوغاز Bataille de Salado عام (741 هـ جمادى الأولى/1340م (حسب النفح) فكانت نهاية الجهاد المريني بالأندلس والتخلي عن الدولة النصرية التي ما لبثت أن لقيت مصرعها المحتوم بعد أن استسلمت (عام 743هـ/1342م) بالجزيرة الخضراء وظل جبل طارق وحده في يد المسلمين إلى عام (1462م/867هـ ثم غرناطة إلى عام (1492م/898هـ) (النفح، ج 6، ص 317/ الاستقصا، ج 2، ص 165).

4) قارن هذه الكلمة بكلمة (علج) وهو الذي يقصد به معتنق الإسلام من النصارى.

5) مجلس الأربعين هذا شبيه بآيت الأربعين عند الأمازغيين الذين رابطت منهم الآلاف ضمن حاميات الحواضر الأندلسية منذ عهد المرابطين وقد لاحظ شكيب أرسلان («الحلل السندسية»، ج 1، ص 25) أن كثيرا من المؤرخين يذهبون إلى أن الايبيريين الذين هم سكان اسبانيا الأولون هم البربر من أصل واحد. ويستدل على ذلك بالتشابه بين عادات الفريقين، من ذلك ما رواه سترابون من أن المرأة كان لها المقام الأول عندهم إلى زمن الرومانيين، وهذه العادة معروفة الآن عند الطوارق في صحراء افريقية وهذه نظرية لا ترتكز على أساس علمي.

6) كتاب مارمول حول ثورة الموريسكيين في مملكة غرناطة – الطبعة الثانية، مدريد 1797م، 116.

7) من مظاهره ما حكاه المؤرخ الانجليزي برسكوت من نسف الاسبان لمسجد بالبشرات مليئ بالنساء والأطفال في كتابه «تاريخ ملوك الكاتوليك». م. 3 مدريد 1846 ص 189 Wiliam Prescott.

8) وقد شمل الاضطهاد حتى المدجنين وهم المسلمون الذين عاشوا على دينهم بين الاسبان قبل سقوط غرناطة.

9) -Lucio Marineo Siculo, Vida y Hechos de los Reyes Catolicos, Madrid 1943.

10) راجع «آل أبي الحسن علي بعد سقوط غرناطة» للدكتور محمد عبده حتاملة م. 2.

11) خلافا لما زعمه مانويل كاستيانوس في كتابه «تاريخ المغرب وأسره المالكة» وكذلك غيره من مؤرخي الأسبان من أنه قتل في معركة أبي عقبة بوادي العبيد عام (943 هـ1536).

12) ورد في وثائق دوكاستر (س. أ – السعديون، ج 1، ص 1918/88) أن فيليب الثاني ملك اسبانيا شكل مليشية جديدة لمواجهة تمرد الموريسك واليهود باسبانيا حيث عثر في قشتالة على مبعوث من سلطان فاس جاء كالعادة في كل سنة يجمع الجبايات من الموريسكيين باسم السلطان وقد اعتقل كما اعتقل خمسة من أصحابه وذلك حسب رسالة مؤرخة من مدريد 17 نونبر 973/1565 هـ وموقعة من W. Phayre. وقد أشار نفس المصدر إلى ثورة الموريسكيين التي امتدت من عام 976 هـ/1568 م إلى عام (978/1570 هـ) كما ورد من قادس عام (1569) أن الثوار يتلقون النجدة من المغرب (ص 104) (راجع دوكاستر – فرنسا، ج 1، ص 286).

13) راجع ديوان أهل الأندلس في كتاب John (Janheinz) - Diwan aus Al-andalus- Nachdichtungen, Hispano-Arabischer Lyrik ; Kassel 1949 (150 p.).